مقدمة
محمد رضوان... عاشق الرومانسية !

بقلم الشاعر د. حسن فتح الباب

أتى على الشعر - وهو فن العربية الأول - حين من الدهر أفلت فيه نجومه، فتحول من الازدهار الذى حققه فى العصر العباسى والعصر الأندلسى الى الاضمحلال فى عصر المماليك والعثمانيين باستثناء ضئيل تمثل بضعة شعراء مثل: البهاء زهير الذى عبر بشعره عن الطابع المصرى!

ولم تكد شمس العصر الحديث تبزغ وتسترد مصر - فى عهد محمد على - أنفاسها حتى بدأت حركة الشعر تتبعث وترهص بميلاد جديد.

وقد تحقق هذا الميلاد بصورة مكتملة على يد محمود سامى البارودى رب السيف والقلم، إذ كان هو مؤسس مدرسة الكلاسيكية التى أعادت الى الشعر ديباجته مستفيدة من تراثنا العربى فى أزهى عصوره وخلف البارودى فى نهاية القرن التاسع عشر شوقى وحافظ ومطران وأحمد محرم فى مصر والزهاوى والرصافى والجواهرى فى العراق وبشارة الخورى الملقب بالأخطل الصغير وعمر أبو ريشة فى لبنان ومفدى زكريا شاعر الثورة ومحمد خليفة فى الجزائر.

ودارت عجلة التطور فجاءت المدرسة الرومانسية أو الوجدانية كما يسميها الناقد الكبير د. عبد القادر القط وكان أبرز أعلامها: إبراهيم ناجى وعلى محمود طه، والهمشرى، وصالح جودت، وأحمد فتحى، وكامل الشناوى، وحسن كامل الصيرفى وغيرهم فى مصر وأبو القاسم الشابى فى تونس

وفهد العسكر وأحمد مشارى العدوانى وأحمد السقاف وصقر الشبيب فى الكويت وأحمد عبد الغفور عطار وحسن عبد الله القرشى ومحمد حسن فقى وعبد الله بن خميس فى السعودية وسلطان العويس فى الإمارات وعبد الله البردونى فى اليمن والتيجانى يوسف بشير فى السودان.

وقد اقتصرنا فيما سبق على ذكر الشعراء الرومانسيين الذين يكتبون قصائدهم فى القالب العمودى، نظراً لأن من يصوغون الكثرة الغالبة من أشعارهم فى قالب قصيدة التفعيلة معظمهم ينتمى إلى التيار الواقعى، أما القلة فيغلب عليها الطابع الذاتى، فالمضمون رومانسى والشكل متحرر فى إيقاعه خلافاً لنظرية وحدة الشكل والمضمون.

ويعد الشاعر الطبيب د. أحمد زكى أبو شادى رائد هذه المدرسة الرومانسية نظرا لاطلاعه على الشعر الرومانسى الإنجليزى، وتأثره بأعلامه وهم كيتس وشيلى وبيرون ووردز ورث وولتر سكوت، وإصداره مجلة «أبو للو» عام ١٩٣٢ لنشر قصائد الشعراء الرومانسيين العرب، ومن ثم سميت الحركة الشعرية الجديدة باسم هذه المجلة واختارت أمير الشعراء أحمد شوقى رئيساً شرفيا لها.

وقد واكبت هذه الحركة مدرسة الديوان التى أسسها الشعراء النقاد الثلاثة عبد الرحمن شكرى وعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى الذين ضخموا دماً جديداً فى دماء المدرسة الكلاسيكية الجديدة والمدرسة الرومانسية بدعوتهم إلى الوحدة العضوية للقصيدة وإضافتهم بعداً فكرياً إنسانياً إليها إثراء لبعدها العاطفى وتوسيعاً لآفاقه، وكان هؤلاء الرواد متأثرين أيضا بالثقافة الأوروبية وآدابها وفنونها.

كما واكبت هاتين المدرستين مدرسة ثالثة تمثلت فى شعر المهجر الذى صاغه شعراء الشام الذين أقاموا بالأمريكتين الشمالية والجنوبية.

وقد أطلق د. محمد مندور على شعرهم مصطلح «الشعر المهموس» وكان فى صدارة مبدعيه: ميخائيل نعيمة،وإيليا أبو ماضى، وجبران الذى كان يكتب القصيدة العمودية المتحررة والشعر المنثور إلى جانب الفن القصصى والروائى كما كان فنانا تشكيلياً وعلى الرغم من تفرد كل مدرسة من المدارس الثلاث الأخرى ببعض الخصائص الفنية والنفسية والفكرية التى تميزها عن الأخرى، فإن ثمة قاسما مشتركا بينها وهو النزعة الرومانسية حيث تتجلى هذه النزعة فى الوعى الفردى بمعنى رؤية العالم من خلال التأمل فى داخل الذات وانعكاس خواطرها على هذا العالم، فهذه الذات عند الشعراء الرومانسيين هى محور الوجود.

والشاعر عندهم نصف إله أو نبى أو ملاك وقد عبر أحدهم عن هذا المعنى فى قوله:

ولد الشاعر العظيم ملاكا طبع الوحى قبلة فوق ثغره

فإذا شدوه وليد أساه وإذا حلوه عصارة أمره

ويتبين فى هذه الأبيات أيضاً النزعة الميتافيزيقية التى يتميز بها معظم شعراء هذه المدرسة كما يتميزون باتخاذ الطبيعة فردوساً لأحلامهم وملاذا يلجؤون إليه للهروب من جهامة الواقع، تلك الجهامة التى تثير فيهم نزعة الحزن والشعور الحاد بالألم والتعلق فى كثير من الأحيان بعالم المهمشين بذلك يختلفون عن الشعراء الذين يصورون الواقع المعاش، ويصدرون عنه لا عن ذواتهم فى تأملاتهم ورؤاهم، فالشاعر الذى ينتمى إلى المدرسة الواقعية - التى خلفت المدرسة الرومانسية أو الوجدانية - يستمد تجربته من الحياة التى تحيط به والمجتمع الذى يعد فردا من أفراده، ويؤمن بنظرية د. محمد مندور: الأدب والفن للحياة والمجتمع خلافا لنظرية د. رشاد رشدى: الفن للفن.

وإذا كانت السمة الدرامية تغلب على الشعر الواقعى بالنظر إلى كونه يصور حركة الصراع بين الأضداد، فإن كثيراً من شعراء الرومانسية يتخذون هذا الصراع موضوعا لبعض قصائدهم، فيغنون للشعوب الثائرة على المستعمرين، وتندرج هذه القصائد فى شعر المقاومة والنضال فى سبيل تحرير الوطن والذودعن أرضه وشعبه واسترداد الحقوق المغتصبة مما يذكرنا بقول الشاعر الرومانسى شيللى: «تتملكنى شهوة تغيير هذا العالم»!

والمثال الساطع فى هذا الاتجاه قصيدة "فلسطين" للشاعر على محمود طه وقصيدة نشيد الحرية لكامل الشناوى وقصائد الشعراء الذين استلهموا مقاومة الشعب المصرى ممثلا فى مدينة بورسعيد للعدوان الثلاثى الغادر سنة ١٩٥٦ والذين استوحوا الثورات العربية ضد الاستعمار وحرب العاشر من رمضان (أكتوبر ١٩٧٣) المجيدة.

وفى هذا المقام يتفق الرومانسيون مع الواقعيين فى المضمون وإن اختلفوا فى الشكل والصياغة والإيقاع.

لقد خطر لى أن أعيد قراءة خريطة الشعر العربى الحديث التى صاغ جانبا كبيرا منها الشعراء الرومانسيون حين اطلعت على هذا الكتاب للأديب الناقد محمد رضوان بعد أن اختصنى بكتابة مقدمة له.

وعلى الرغم من كثرة المؤلفات (ولا سيما الرسائل الجامعية) التى تناولت شعراء الرومانسية، فإن هذا الكتاب الذى بين أيدينا يضيف مزيدا وجديدا من المعلومات والأفكار إلى ما اطلعنا عليه من المؤلفات بفضل ما بذله الأديب الباحث من جهد جهيد فى جمع مادة هذا الكتاب الذى يعد دراسة أدبية من جانب وترجمة لحياة واحد من شعراء هذا الإتجاه الوجدانى وهو كامل الشناوى الذى تناول حياته وشعره.

ويرجع توفيق أديبنا الناقد فى هذا العمل الأدبى إلى صدقه وإخلاصه

ومحبته للشعراء الرومانسيين الذين غمروا الساحة الأدبية بفيض من إبداعهم منذ العشرينيات من القرن العشرين كما يرجع هذا التوفيق الذى أحرزه إلى أنه لم يقتصر فى كتابة مؤلفه على قراءاته لانتاجهم الأدبى، أو التحرى عن حياتهم فى شتى المصادر فحسب، بل اعتمد على حصيلة لقاءاته مع بعضهم، إذ بدأ مسيرته وهو فى ريعان العمر بالسعى الحثيث إلى هذه اللقاءات مهما تجشم من مشاق، انطلاقاً من إعجابه بشعرهم وتقديرا لدورهم فى إثراء فن العربية الأول والنهوض بحركة الشعر الرومانسى الذى استأثر باهتمامه، واعتبر العكوف على دراسته رسالة سامية نذر جهوده للوفاء بها، فأصدر دراساته عن شاعر النيل والنخيل صالح جودت، وشاعر الكرنك أحمد فتحى، وشاعر الجندول على محمود طه، وشاعر الأطلال ناجى، وشاعر الهمسات أحمد عبد المجيد وأخيرا هذا الكتاب وعن كامل الشناوى: شاعر الحب والحرمان.

* * *

تحية وتقدير للأديب الناقد محمد رضوان الذى يستحق أن نشد على يديه، وأن نتمنى له مزيداً من العطاء بحيث يشمل بدراساته القادمة شعراء الرومانسية الآخرين فى مصر وفى سائر البلاد العربية.

القاهرة أكتوبر ٢٠٠٩

د. حسن فتح الباب